مركز الخليج للأبحاث
المعرفة للجميع

مختبر الحوار بمركز الخليج للأبحاث
Gulf Research Center Dialogue Lab

أوراق ثقافية

المستشرقون من سايكس- بيكو إلى الشرق الأوسط الجديد

معالي الأستاذة سميرة بنت رجب

وزيرة الإعلام الأسبق بمملكة البحرين

مايو – 2026

إن التحليل القائم على ربط الاستشراق بإعادة الهندسة الحديثة لمنطقة الشرق الأوسط يعد مجالاً أكاديمياً رصيناً، يمكن أن تُدَرّس فيه تاريخ المعرفة وسوسيولوجيا السياسة الخارجية للاستعمار. وإن المؤلَّف الموسوعي للدكتور إدوارد سعيد، "الاستشراق"، و"أرشيف جيرترود بيل في جامعة نيوكاسل"Gertrude Bell Archive Newcastle University، والمصادر والابحاث الحديثة التي تبني فهماً متيناً للعلاقة بين معرفة المنطقة وإعادة صنعها، تشكل جميعها مصادر أكاديمية للبحث في معرفة جذور وحقيقة الاستشراق، الذي لم ينتهي، بل مازال أداؤه مستمراً، بعناوين مختلفة، لرسم أحداث ومستقبل منطقتنا.

وللبحث في العلاقة بين إعادة هندسة المنطقة في مشروع الشرق الأوسط الجديد وبين ما أسسه المستشرقون خلال القرون السابقة هناك ضرورة لتوضيح وفهم الرابط التاريخي والفكري الدقيق للمشروع، والربط بين مرحلة الاستعمار الكلاسيكي، حيث كان الاستشراق أداة للفهم والتحكم، كنظام معرفي أنتج تصنيفات وهيمنات لا تزال تؤثر حتى اليوم؛ والمرحلة الحديثة، حيث أعيد توظيف هذه المعرفة في مشاريع إعادة الهندسة الجيوسياسية؛ وصولاً إلى التأكيد على أن الاستشراق لم يكن مجرد دراسة أكاديمية بريئة بل كان جزءً من آلة الهيمنة الاستعمارية المبكرة.

إن العلاقة بين مشروع الشرق الأوسط الجديد وقاعدة البيانات الاستشراقية هي علاقة تأسيسية وتكتيكية، يمكن فهمها على أنها عملية من مرحلتين:

- أولها/ مرحلة تراكم المعرفة (الاستشراق)
- ثانيها/ مرحلة التطبيق (إعادة الهندسة)

إذ لم يكن الاستشراق مجرد اهتمام بالشرق كما جرى الترويج له، بل كان في المرحلة الأولى نظاماً معرفياً منظماً لجمع البيانات، وتصنيفها، خَدَمَ أهدافاً استعمارية للفهم والمعرفة من أجل التَحَكُّم؛ ولتصنيف المجتمعات في خانة «قابل للاستعمار»؛ ولبناء سردية التفوق والتخلف. وفي المرحلة الثانية تأسس مشروع الشرق الأوسط الجديد كتطبيق عملي للنظام المعرفي المنظم.

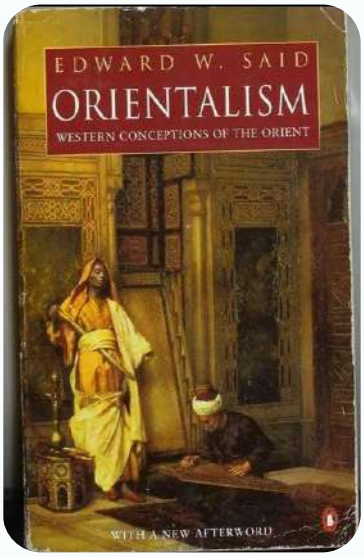

وبذلك يمكن التأكيد على أن المعرفة التي أنتجها الاستشراق لم تذهب سدى بعد انتهاء مرحلة الاستعمار القديم، بل أُعِيد استثمارها في مشروع إعادة الهندسة الحديث، الذي أعاد استخدام نفس التصنيفات والخرائط، لكن بأدوات وذهنية عصرية... ولربما مع استمرارية تحديث وتطوير الجهد المعرفي الاستشراقي يبقى قابلاً للاستخدام والاستثمار من أجل بقاء فكر وقوة الاستعمار الغربي المهيمن في العالم إلى أجل غير معلوم.

مستشرقون في الحقبة العربية المصيرية

من بين أعداد من المُرسَلين إلى المنطقة للبحث والاستكشاف، عمل ثلاثة مستشرقين رئيسيين، في عمق المجتمعات العربية، في تداخل زمني ومكاني جعلهم يُشَكّلُونَ معاً مثلثاً مؤثراً في رسم خريطة المنطقة، على الرغم من اختلاف أدوارهم ومواقفهم، مما يؤكد على تكامل أدوارهم، وتعاونهم في فترات معينة، وهم:

- السيدة جيرترود بيل، الملقبة بـ"خاتون بغداد"
- والسير ت.إ. لورانس، الملقب بـ"لورانس العرب"
- والسانت جون فيلبي، الملقب بـ"الشيخ عبد الله"

نماذج من المستشرقين الذين عاشوا في منطقة الشرق الأوسط في نفس الحقبة المصيرية (١٩١٤-١٩٢٦)، وعملوا بالتعاون والتنافس فيما بينهم، وكانوا من أبرز الضباط السياسيين وأهم الأذرع الاستخباراتية في وزارة المستعمرات البريطانية؛ وكانت معرفتهم العميقة بالمنطقة، وشبكة علاقاتهم، وتقاريرهم الاستخباراتية، هي المادة الخام التي رسمت بها بريطانيا خريطة الشرق الأوسط الحديث، مما جعل من هذا الثلاثي البريطاني الأكثر تأثيراً في تاريخ المنطقة العربية في القرن العشرين.

أرشيف جيرترود بيل دليل إدانة تاريخي

قضت المستشرقة الإنجليزية السيدة جيرترود بيل (١٩٢٦-١٨٦٨) سنوات من حياتها بين القبائل والعشائر والطوائف في شبه الجزيرة العربية ومنطقة شرق المتوسط "العثمانية"؛ وعاشت في العراق لما يقارب من عشر سنوات حتى وفاتها عام ١٩٢٦، وأكدت قرارات مؤتمر القاهرة ١٩٢١ بأنها كانت الخبيرة الرئيسية في الشؤون العربية لدى

الحكومة البريطانية خلال وبعد الحرب العالمية الأولى؛ إذ لعبت دوراً محورياً في رسم حدود العراق الحديث، واختيار النظام الملكي للعراق والملك فيصل الأول كأول ملك، وتأسيس متحف العراق، الذي نُهب لاحقاً عام ٢٠٠٣.

وأرشيف جيرترود بيل الذي تم رقمنة جزء كبير منه وهو متاح للعموم عبر مكتبة جامعة نيوكاسل في المملكة المتحدة ويمكن الاطلاع عليه تحت عنوان Gertrude Bell Archive، هو مجموعة ضخمة من المراسلات والتقارير والخرائط والمذكرات الشخصية والصور الفوتوغرافية التي تركتها، ويحتوي على:

- رسائلها الرسمية إلى وزارة الخارجية البريطانية
- مراسلاتها الشخصية مع شخصيات مثل ت. إ. لورنس (لورنس العرب)
- تقارير استخباراتية عن العشائر والطوائف والموارد العراقية
- مذكراتها عن مؤتمر القاهرة الذي قرر مصير المنطقة
- الخرائط التي رسمتها بيدها.

حوّلت جيرترود بيل المعرفة الأنثروبولوجية إلى أداة إدارية لمبدأ "فَرِّق تَسُد"، وخلق توازنات هشة، من خلال دراسة العشائر العراقية. وحددت في خرائطها مناطق نفوذ القبائل وحدودها، فكرّست نظرة للمجتمع العراقي كمجموعة هُويات بدائية متصارعة، وليس كأمة قابلة للتطور، وخصوصاً بتصنيفها للمجتمع ككيانات منفصلة وطوائف متعددة (شيعة وسنة وأكراد).

استخدمت بيل معرفة اللغة، حيث كانت تتحدث الإنجليزية والفرنسية والعربية والفارسية، واستفادت من التاريخ لتبرير السيطرة السياسية والعسكرية، وشرعنة الهيمنة، من خلال ما تظهره كتاباتها من إيمان بواجب الرجل الأبيض في إدارة هذه المجتمعات المتخلفة التي كرستها في دراستها.

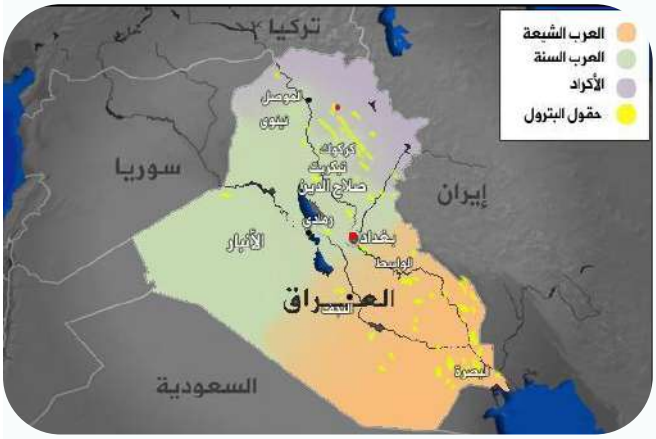

لاستشراق الأكاديمي والتطبيق الاستعماري

يُعد أرشيف جيرترود بيل أكثر من مجرد وثائق تاريخية، بل هو سجل حي يُظهر كيف تُترجم المعرفة الأنثروبولوجية والتاريخية مباشرة إلى قرارات حدودية وسياسية مصيرية؛ كما يُعتبر برهان على أن الرؤية الطائفية - العشائرية للمجتمعات العربية لم تكن طبيعية، بل تم تعزيزها وتسليط الضوء عليها من قبل القوى الخارجية لتسهيل حُكمها.

والأرشيف يعد نموذجاً للاستشراق الأكاديمي والتطبيق الاستعماري، وتأكيداً على أن مشروع الشرق الأوسط الجديد ليس جديداً، بل هو تكرار مُعاصر لنفس العقلية الاستعمارية التقليدية في إعادة التشكيل، مع تغيير الأدوات، فحلت الدبابات بدلاً عن المعاهدات، و"الفوضى الخلاقة" بدلاً عن الانتداب، والمستشارون ومصانع الفكر ومراكز الدراسات والسياسات بدلاً عن المستشرقين.

الأرشيف يضم آلاف الصفحات والصور التي تُوَثّق البذور الأولى لمشروع إعادة رسم المنطقة في القرن العشرين، والتي لا تزال تُثمر ناراً ودماراً حتى اليوم.

الاستشراق مشروع مؤسسي منظم

لم يكن نجاح المستشرقين في جمع البيانات مصادفة أو جهوداً فردية فقط، بل كان مشروعاً مؤسسياً منظماً، بآليات منهجية وتمويل رسمي، هدفه بناء موسوعة استعمارية شاملة عن المنطقة. كانت الرحلات الاستكشافية العلمية هي آلياته المعلنة التي جمعت بين علوم الآثار، والانثروبولوجيا، والتجسس.

كما عمل المستشرقون أيضاً في التأسيس الأكاديمي مثل إنشاء كليات اللغات الشرقية (باريس)، والجمعيات الجغرافية، والمجلات المتخصصة، والتي شكّلت شبكة معرفية راعية لرحلات الاستكشاف؛ إضافة إلى الاهتمام الجاد بآلية التوثيق والتصوير وجمع المخطوطات والآثار.

ورغم ضبابية المعلومات حول جذور أعمال المستشرقين إلا أنهم كانوا يعملون تحت مظلة الدولة والدبلوماسية (مثال: وزارة المستعمرات البريطانية)، حيث كان منهم قناصل وسفراء وجواسيس، أو ضباط استخبارات، ووفرت لهم وظائفهم الحصانة والموارد، كما غطت أنشطتهم.

المعرفة منهج للغزو والحكم

إن المنطق العملي للاستعمار المعرفي البريطاني تقوم على مبدأ غير مكتوب، يؤكد بأنه "لكي تحكم شعباً، يجب أولاً أن تعرفه أكثر مما يعرف نفسه"، وهذا يلخص تفاصيل الممارسة التاريخية الاستعمارية التي تم تجسيدها على الأرض بإنشاء قواعد بيانات ضخمة، مَنحت المستعمر والمحتل تفوقاً معلوماتياً مكّنَه من تقسيم المجتمعات وإدارتها عبر سياسة "فرّق تسد"، والقدرة على توقّع الثورات وقمعها قبل انطلاقها، ونهب واستغلال موارد الشعوب بكفاءة.

هذا النهج في الحكم جعل الاستعمار البريطاني أكثر ديمومة وأقل كلفة من غيره، لأنه حوّل المعرفة إلى سلطة ممنهجة أسست أكبر إمبراطورية استعمارية في التاريخ.

إن جمع البيانات الاستشراقي كان المرحلة الصفر من الغزو، والمستشرقون وفروا هذه المعرفة التشغيلية التي جعلت الاستعمار ممكناً، ولم تكن السيطرة بالدبابات وحدها، بل بالخرائط والقواميس وتقارير القبائل.

وهذا يفسر لماذا كانت حدود سايكس - بيكو دقيقة جداً في تقسيم مناطق النفوذ؟ ولماذا استطاعت بريطانيا إدارة العراق المعقد بمئات الضباط فقط؟

باختصار، كان الاستشراق هو الذكاء الاصطناعي في تلك المرحلة، وتراكمه المعرفي كان يُعتبر البيانات الضخمة لعصر الإمبراطوريات، لأنهم كانوا يحكمون عبر قاعدة البيانات التي صنعها المستشرقون على مدى قرن.

المستشرقون المعاصرون

ومع مرحلة الاستعمار الحديث تغيرت الألقاب والمسميات، وبقي الدور المعرفي والمعلوماتي مستمراً؛ إذ يُستَخدم الباحث الاستشراقي كخبير استراتيجي، وباحث أو مستشار في مراكز الفكر، أو محلل في وزارة الدفاع.

يعد المستشرق برنارد لويس (١٩١٦-٢٠١٨)، المتخصص في التاريخ الإسلامي، المثال الأبرز كمرجع استراتيجي معاصر لصانعي القرار حول "كيف يفكر المسلمون"؟ من خلال دعواته الصريحه لإعادة رسم الخرائط الطائفية والعرقية التي رسمها الاستشراق الكلاسيكي في الشرق الأوسط، واستغلال الولاءات الأولية والهُويات ما قبل الوطنية (القبلية والطائفية)، وتفكيك الولاء للدولة المركزية، مع تقديم التحرير في سردية للهُويات الفرعية كتبرير لتفكيك الدولة القومية.

جوهر الخريطة الفكرية لبرنارد لويس

في تحليلاته منذ السبعينيات طرح برنارد لويس أفكاراً شكلت النظرية التأسيسية لما يسمى بـ"الشرق الأوسط الجديد" من خلال طرحه "إن الحدود التي رسمها سايكس-بيكو (١٩١٦) مصطنَعة وغير مستدامة، وستنهار تحت وطأة التناقضات الداخلية، لتظهر كيانات أكثر تجانساً على أساس هُويات ما قبل الوطنية (طائفية، عرقية، قبلية)".

وفي مشروعه حول «العقلية الإسلامية» قدّم قراءة للتاريخ تفيد بأن الصراع الأساسي في المنطقة ليس مع الاستعمار أو إسرائيل، بل هو صراع داخلي بين الإسلام والحداثة، وبين السنة والشيعة، وبين العرب والأتراك والفرس والأكراد (برنارد لويس: «أزمة الإسلام: الحروب المقدسة والإرهاب غير المقدس»، ٢٠٠٣ The Crisis of Islam: Holy War and Unholy Terror)

يُعد المستشرق الأمريكي، البريطاني الأصل، برنارد لويس المُنَظّر غير الرسمي لمشروع الشرق الأوسط الجديد، من خلال نشاطه الفكري الذي جهّز العقلية الغربية لفهم المنطقة ليس كدول وشعوب لها حقوق، بل كـفسيفساء من الهُويات المتناحرة التي يمكن التعامل معها وإعادة تركيبها.

هو لم يخطط للغزو، لكنه قدّم ما يمكن وصفه بخارطة طريق تنفيذية للمشروع، من خلال علاقته كمُنظّر يزرع الفكرة مع السياسي والعسكري، ويحصد نتائجها على الأرض.

كُتب الاستشراق "دليل المستخدم" للمنطقة، ومنظروا "مشروع الشرق الأوسط الجديد" عملوا على تطبيق هذا الدليل بعنف لإصلاح، أو إعادة تركيب، خريطته بمنظور جديد أكثر تدميراً. والخطير في الأمر أن هذا "الدليل" مبني على تصورات ثابتة وجوهرية مجردة عن التاريخ والسياق العام، مما يجعل الحل الذي يقدمه كارثياً. ولازال المستشرقون يقومون بأدوارهم الاستراتيجية، والتكتيكية، في أكثر المواقع حساسية وتأثيراً في صناعة القرار العربي.

ولربما نكتب مستقبلاً عن السبل الجديدة في جمع البيانات الضخمة حول تفاصيلنا الحياتية الدقيقة، التي نقدمها بأنفسنا وبرحابة صدر، عبر التطبيقات الالكترونية الذكية والخفية على شبكات الانترنت، لتصب كمعلومات استراتيجية في نهر مراكز الاستشراق الجديدة المتمثلة في مخازن البيانات السحابية، ثم تُحال إلى البحث والتحليل وصناعة القرار في دوائر الاستعمار الحديث؛ وكيف أصبحت هذه البيانات اليوم هدفاً تتصارع عليه الأقطاب الكبرى في العالم، لأن من يملك المعلومة يملك القوة.

مركز الخليج للأبحاث
المعرفة للجميع

www.ar.grc.net

Gulf Research Center Jeddah (Main office)

19 Rayat Alitihad Street
P.O. Box 2134
Jeddah 21451
Saudi Arabia
Tel: +966 12 6511999
Fax: +966 12 6531375
Email: info@grc.net

Gulf Research Center Riyadh

Unit FN11A
King Faisal Foundation
North Tower
King Fahd Branch Rd
Al Olaya Riyadh 12212
Saudi Arabia
Tel: +966 112112567
Email: info@grc.net

Gulf Research Center Foundation Geneva

Avenue de France 23
1202 Geneva
Switzerland
Tel: +41227162730
Email: info@grc.net

Gulf Research Centre Cambridge

University of Cambridge
Sidgwick Avenue,
Cambridge CB3 9DA
United Kingdom
Tel:+44-1223-760758
Fax:+44-1223-335110

Gulf Research Center Foundation Brussels

Avenue de
Cortenbergh 89
4th floor, 1000
Brussels
Belgium